قصة الحسن بن الصباح والقلاع الإسماعيلية (آلموت وماحولها)

يحدثنا المؤرخ الفارسي علاء الدين الجويني في كتابه (جهان كشاي) أنه نقل عن سيرة الحسن ابن الصباح التي كتبها عن نفسه أنه قال عن نشأته الأولى وعن اعتناقه المذهب الاسماعيلي «منذ طفولتي بل منذ السابعة من عمري، كان جل اهتمامي تلقي العلوم والمعارف والتزود بكل ما أستطيعه منها في سبيل توسيع مداركي، وكنت كآبائي قد نشأت على ا لمذهب الاثني عشري في التشيع، ولم أكن أرى في غيره طريقا للخلاص من آفات العالم، ولكن حدث أن تعرفت في شبابي إلى أحد دعاة الاسماعيلية الفاطميين، فكنت أجادله جدالا عنيفا، وأخذ كل واحد منا يشيد بما هو عليه من عقائد مذهبية وآراء دينية، إلا أن الدامغة تركت عندي أثرا قويا جدا، ثم افترقت عن الداعي قبل أن اعتنق مذهبه، وبعد قليل اصابني مرض ألزمني الفراش، فخشيت أن تختطفني يد المنون قبل أن أتطهر باعتناقي المذهب الاسماعيلي إذ اعتزمت على اعتناقه بتأثير مناقشاتي مع الداعي، ولما عوفيت وتعرفت إلى أبي نجم السراج، رغبت إليه في أن يزيدني حديثا عن مذهبه، وأخذت أفكر تفكيرا عميقا في تعاليم هذا المذهب، ثم قدر لي أن اتعرف بالداعي مؤمن، وكان موفدا إلى مدينة الري من قبل عبد الملك بن عطاش داعي الدعاة في العراقين (أي في العراق العجمي والعراق العربي) فتوسلت إليه أن يقبل مني البيعة للخليفة الفاطمي بمصر، وأن يأخذ علي العهود والمواثيق، فتردد الداعي ثم اجابني إلى طلبي وبذلك دخلت الدعوة الاسماعيلية وصرت واحدا من اتباع الإمام الفاطمي بمصر، ولما وفد عبد الملك بن عطاش داعي الدعاة إلى الري مثلت بين يديه، ولما وقف على آرائي واختبر استعدادي عهد إلي ببث الدعوة، وبذلك أصبحت داعيا إسماعيليا، ثم وجهني بقوله: «عليك بالوفود على القاهرة لتنعم بخدمة مولانا الإمام المستنصر» ولما غادر عبد الملك بن عطاش الري في طريقه إلى أصبهان، كنت أنا أيضا في طريقي إلى القاهرة.

وبالفعل خرج الحسن إلى اصفهان سنة ٤٦٧ هجرية فأقام بها سنتين يشتغل بالدعوة وكيلا لابن عطاش ثم توجه منها إلى مصر مجتازا طريق اذربيجان، ميافارقين، الموصل، سنجار، الرحبة،

دمشق، صيدا، صور، عكا، ثم ركب البحر إلى مصر فوصلها في ٣٠ اغسطس سنة ٤٧١ هجرية واستقبله داعي الدعاة أبو (داؤود) استقبالا حافلا شاركه فيه النبلاء والاعيان، وسرعان ما شمله الإمام المستنصر برعايته ورضاه فاغدق عليه نعمه وقربه وامره بدعاء الناس إلى إمامته.

وكان الحسن يمني نفسه أن يأخذ علوم الدعوة الاسماعيلية عن المؤيد في الدين هبة الله بن موسى الشيرازي الذي كان في مرتبة داعي الدعاة وحجة الإمام، وهي مرتبة لم يصل إليها في تاريخ الاسماعيلية إلا عدة أفراد فقط.

ولكن المؤيد توفي قبل أن يصل الحسن بن الصباح إلى القاهرة، ووجد ابن الصباح كتب المؤيد وتلاميذه فاشتدت صلته بهم، وأخذ يتردد على معاهد العالم ويجتمع بالدعاة والعلماء وسرعان ما احتل المكان اللائق به، ومع هذا كله كان الاسماعيلي المخلص موضع مقت بعض الوزراء ممن كانوا يطمعون في استبداد الحكم واخضاع الخليفة لأوامرهم، ولقد تبرم الوزير بدر الجمالي المقام الحسن ابن الصباح في مصر، لاسيما أنه بهر كل من اتصل بهم بحدة ذكائه وتوقد ذهنه وما أظهره من اخلاص لإمامه المستنصر واستعداده أن يضحي بنفسه في سبيل الإمام، فخشي الوزير بدر الجمالي منه وعمل جاهداً على اخراجه من مصر، فبدأ الوزير يدبر المؤامرات للإيقاع بابن الصباح، فأوعز أولاً إلى رجاله أن يوغروا صدر ابن الصباح حتى يخطئ، فتكون عند الوزير ذريعة لإلقاء القبض عليه والزج به في السجن، ولكن ابن الصباح كان حذراً أشد الحذر من مثل هذه الدسائس والمؤامرات التي كانت تحاك ضده، كما أن بعض اصدقائه نصحوه بأن يضاعف حذره، وبالرغم من كل هذا رج الحسن في سجن دمياط،

ويقال أن الأسباب هي أن المستنصر كان قد نص على إمامة ابنه الأكبر نزار من بعده. وكان قد بلغ الرجولة، ولقد ساء الحسن بن الصباح ما كان يراه من استبداد بدر الجمالي بالحكم واستئثاره بكل شيء وتدخله في شؤون المذهب، كما شعر ولي العهد نزار بتصرفات الوزير الجمالي وأخذ يرصد حركاته عن كثب، فأيقن بدر الجمالي أن نزار إذا خلف أباه فسيقصيه حتماً عن الحكم لذلك تآمر مع والدة الابن الأصغر، للمستنصر (أحمد المستعلي) بمساعدة بعض النفعيين وخاصة الأوساط الموالية له في اليمن.

ولقد أتى صاحب جامع التواريخ على ذكر هذه الحادثة فقال: «حدث في ذلك الوقت تعيين ولي العهد في مصر فاختار المستنصر ابنه نزار وكان بدر الجمالي يحبذ تعيين المستعلي، وناصر الحسن بن الصباح التعيين الأول، فغضب بدر الجمالي ولم يرض بما كان يبديه المستنصر للحسن من احترام، فعمل على سجنه ثم طرده من مصر». وهكذا زج الحسن ابن الصباح في سجن دمياط بدعوى أنه عَرَّض أمن الدولة للخطر لأن مركز الدولة بنظره أهم من مركز الدعوة.

وعد معظم الإسماعيليين الخُلَّص في مصر معاملة بدر الجمالي للحسن بن الصباح نكبة

ألمت بالدعوة والدولة معا واستدلوا على ذلك بالمعجزة التي حدثت عندما انقض جدار السجن الذي كان فيه الحسن واستبشر الإسماعيليون خيرا واعتبروا تلك المعجزة كرامة للإمام المستنصر وتقديرا منه لإخلاص الحسن وتفانيه المطلق في سبيل نشر الدعوة والدفاع عنها بشتى الوسائل.

بدر الجمالي

كان بدر الجمالي أرمني الجنس والأصل اشتراه جمال الدولة بن عمار فترعرع وشبّ في كنفه حتى أصبح من رجاله المعدودين ومن ذوي الآراء وعرف بقوة العزم وشدة المراس، استنابة الإمام المستنصر بالله بمدينة عكا، وعندما ضعفت حال مصر واختل نظام الدولة استدعاه الإمام المستنصر إلى مصر فشخص إلى القاهرة عشية يوم الأربعاء أواخر جمادى الأول سنة ٤٣٣ هجرية فولاه المستنصر تدبير أمور الدولة وسرعان ما تمكن بحنكته وحسن إدارته من إعادة الأمن والرخاء إلى البلاد، فجعل إليه المستنصر أمر الوزارة وإمرة الجيش ومن ثم طمع في رتبة القضاء والدعوة، وما أن توفي المؤيد في الدين الشيرازي داعي الدعاة حتى قبض على زمام الدعوة فأصبح يسيطر على رئاسة الدعوة والدنيا، ولما دخل الحسن بن الصباح مصر خاف بدر الجمالي على رئاسة الدعوة لما يعرفه عن الحسن وسعة علمه وحسن تدبيره وتعمقه في الأمور الدينية، أقول خاف أن يخسر رئاسة الدعوة التي يحرص عليها أشد الحرص والتي كان يحاول من خلفها تغيير الوجهة الدينية عن وضعها الراهن، لذلك بذل وسعة لإقصاء الحسن والتخلص منه مهما كان الثمن، وبالفعل تم له ما أراد. وكانت وفاة بدر الجمالي سنة ٤٨٧ هجرية بعد أن سلّم الوزارة لولده الأفضل.

خروج الحسن من مصر

عندما خرج الحسن بن الصباح من السجن لانهدام جداره، أصدر بدر الجمالي الأوامر بنفيه إلى بلاد المغرب، فأبحر الحسن من الإسكندرية سنة ٤٧٣ هجرية واتفق أن صادف السفينة نوء شديد اصفرت لهوله ألوان الركّاب وارتعدت فرائصهم وهلعت قلوبهم، فارتفعت أصواتهم بالعويل والبكاء لأنهم أيقنوا بالهلاك المحقق. كل هذا يجري والحسن هادئ الأعصاب ساكن البال مرتاح الضمير كأنه يجلس في عقر داره، الأمر الذي لفت إليه الأنظار وأثار دهشة مرافقيه، فالتفوا حوله وطلبوا منه أن يفسر لهم سر طمأنينته، فقال لهم الحسن بإيمان عميق الجذور وثقة عمياء: إن الله سبحانه وتعالى وعدني بالنجاة ليقضي أمرا كان مفعولا.

اتخذ الركاب مقالته بين مصدق ومكذب حتى وصلت بهم السفينة إلى ثغر عكا ورست بسلام، حينئذ وقعوا جميعا على أقدام الحسن يقبلونها ويتبركون به، والجدير بالذكر أنهم دخلوا عن بكرة أبيهم في مذهبه.

ولربما كان ذلك يرجع لثقته العظيمة بنفسه بعد أن مثل بين يدي الإمام المستنصر الذي

زوده بتعاليم روحية وعقلية جعلته يعتقد بأنه إنما خلق ليؤدي مهمة نشر الدعوة الإسماعيلية، ولن يموت حتى يبلغ بمهمته درجة الكمال، وحتى يتم له تأسيس الدولة النزارية، الأمر الذي ذهب به إلى أبعد حد في شعوره بنفسه واعتماده عليها. وهناك ظاهرة أخرى تساعدنا على تعليل ذلك التنبؤ وإرجاعه إلى سبب القوة الروحية، وهذه الظاهرة هي توفيقه العظيم في إنجاز خططه، ونجاح أعماله وما ناله من السلطان العجيب والنفوذ المطلق على رعاياه، وباعتقادي أنها ليست المرة الأولى التي تنبأ بها الحسن وصدقت نبوءته، ولعل صدق تنبؤاته العديدة هي أحد العوامل في ثقة اتباعه العظيمة فيه واعتمادهم عليه اعتماداً كلياً.

وعلى العموم فإن الرياح قذفت بسفينة الحسن إلى ساحل الشام فنزل بثغر عكا وأخذ يطوف المدن والأمصار ويدرس الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية والدينية فيها. وكان يدعو للمذهب الإسماعيلي في كل بلد نزل به ، فاستجاب له عدد كبير من الناس، وأكثر من اجتذاب الجماهير المتعطشة إلى العدل والتي ضاقت بها الحياة من طغيان حكم السلجوقيين الأتراك، واختار عدداً من الدعاة ذوي المواهب الفذة في المجادلة وأرسلهم إلى القلاع والحصون التي في جنوب بحر قزوين، وتمكن هؤلاء الدعاة من أن يدخلوا عدداً كبيراً من سكان هذه الحصون والقلاع في الدعوة الإسماعيلية ولاسيما طبقة الجند. وفي سنة ٤٧٣ هجرية بلغ أصفهان، ومن ثم توجه بدعوته إلى يزد وكرمان وطبرستان ودامغان وبقية نواحي فارس.

وكان ممن استجاب له جنود قلعة آلموت (ومعناها عش العقاب) وهي قلعة منيعة على جبل وحولها وهاد بحيث لا يبلغها الأعداء إلا بشق الأنفس، ولمناعة هذه القلعة ركز الحسن بن الصباح جهوده لامتلاكها، فاستخدم عنصر الدعوة أولاً للوصول إلى هدفه، فلما نجح دعاته في تحويل جنود القلعة إلى المذهب الإسماعيلي، أوعز إلى دعاته أن يوجهوا إليه دعوة لزيارتهم، فوجهت إليه الدعوة بين مظاهر الفرح، وذهب ابن الصباح إلى القلعة متنكراً ولم يعرفه أحد من اتباعه في القلعة سوى الدعاة فقط، أما البقية فكان يتظاهر أمامهم بأنه نائب عن الحسن بن الصباح جاء ليتفقد أحوالهم قبل أن يزورهم ابن الصباح.

يقال أن الحسن قضى عدة أيام في تنكره هذا وهو يدرس القلعة دراسة دقيقة ويفحص حصونها وأحوال الناس فيها. فلما عرف كل شيء أظهر نفسه، وطلب من حاكم القلعة أن يسلمها له نظير مبلغ معين من المال يتسلمه من حاكم مدينة (الدامغان) بجنوبي قزوين الذي كان بدوره من الإسماعيلية، وكان يأتمر بأوامر ابن الصباح سراً بالرغم من أنه كان من عمال السلجوقيين، فلم يستطع حاكم قلعة آلموت المقاومة فسلم القلعة سنة ٤٨٣ هجرية ودعا فيها الحسن بن الصباح باسم المستنصر بالله إمام الإسماعيلية في مصر، وبذلك دخلت الإسماعيلية في فارس دوراً جديداً منذ استطاع الحسن أن يستولي على قلعة آلموت. إذ عمل على توسيع رقعة دولته الجديدة

وخلق دولة إسماعيلية خالصة، بحيث يكون جميع من فيها من الحكام والرعايا من الإسماعيليين المخلصين الذين يدينون بالطاعة المطلقة للإمام الذي يتزعم هذه الدولة، على النمط الذي تخيلها وحاول تحقيقها الدعاة الإسماعيليون في دور الستر، وبذلك يكون قد وفق بين آراء الفاطميين والقرامطة من الإسماعيليين، ومن ثم المجتمع النزاري الذي أصبح همزة وصل بين هاتين الفرقتين.

وكيفما كان فإن الحسن قد درس التطورات السياسية والاجتماعية والدينية دراسة دقيقة واكتشف ما فيها من الضعف والقوة، والحق والباطل، وطبق خلاصة النظم الاقتصادية والاجتماعية على مجتمعه في آلموت تطبيقاً دقيقاً، حتى أصبح المجتمع النزاري خلاصة الفرق الإسماعيلية ومجمل آرائها المختلفة.

الحسن حجة المستنصر في فارس وخراسان

بما أن المستنصر بالله قد اختار الحسن بن الصباح ليكون حجة له في بلاد فارس وخراسان، وأمره بإقامة الدعوة له ولابنه نزار من بعده، فإنَّ الحسن كاد يستقر في بلاد فارس حتى أخذ يعمل جاداً في تنظيم الدعوة تنظيماً دقيقاً، فبث دعاته في أنحاء البلاد وفي خراسان وبلاد الديلم، ووجه جل اهتمامه لاحتلال القلاع والحصون المحيطة به، وكانت المنطقة الشمالية الغربية ما بين الديلم والعراق تتخللها عدة حصون شاهقة منيعة تقع على هضاب وعرة المسالك تمكن المسيطر عليها من بسط سلطانه وسيادته على المنطقة كلها، لذلك أخذ الحسن يطوف بالبلدان برفقة بعض الدعاة داعياً لإمامه المستنصر ولولي عهده نزار من بعده، ولم يكن أمره سهلاً ومهمته يسيرة بل كان طريقه صعباً محفوفاً بالمخاطر لاسيما ونظام الملك جاد في طلبه، وقد بث رجاله في أنحاء بلاد فارس وخراسان وأمرهم بإلقاء القبض على الحسن أو قتله وكتب بذلك إلى جميع ولاة الأقاليم الذين أخذوا يطاردونه في كل مكان، لذا فكر الحسن في إيجاد ملجأ منيع يقيه ويحميه من أعدائه وبنفس الوقت يكون مركزاً لنشر دعوته ولتدريب دعائه، لذلك اتجهت أنظار الحسن إلى الاستيلاء على حصن من الحصون التي كانت منتشرة على طول الحدود الفارسية العراقية ليتخذه مقراً له وملجأ يقيه شر مطارديه، وبعد تسع سنوات شداد قضاها الحسن واتباعه في نضال مستمر وجهود جبارة عظيمة ودعاية واسعة قوية توصل إلى قلعة آلموت وكان استيلاؤه على قلعة آلموت فاتحة ميمونة بالنسبة للإسماعيلية فقد توالت فتوحاتهم بعد ذلك فاستولوا على قلعتي شاهدوز وخلنجان بقرب أصبهان وعلى قلعة طبس وطون، وقائين، وزوزان، وخورخوسف في قهستان وعلى وشكموه بقرب أبهر وعلى اسناوند في مازندان وعلى اردهان وكركوكوه، وقلعة النادر في خوزستان وغيرها من القلاع والأمكنة.

القلاع الإسماعيلية

إن الحسن بن الصباح لما تمكن من احتلال قلعة (آلموت) على تحصينها وجعلها عاصمة

للدولة الإسماعيلية النزارية ومركزا لقيادة جيوشه ومدرسة لتعليم دعاته، وما لبث طويلاً حتى جمع حوله الإسماعيلية وقد ساروا إليه من كل حدب وصوب ، ففاقت بكثرتهم خراسان مما حدا بالحسن بن الصباح إلى تنظيم صفوفهم ودفعهم للإغارة على الحصون والقلاع المجاورة، وبالفعل نجحوا في الاستيلاء على عدة قلاع منها: طبس، وقهمتان، وخور، وخوسنا، وزوزن، وقايين، وتون، وسمنكوه، وخالنجان، وأستونا، واردهين، وكردكوه، والناظر، والطنبور، وكلادخان وغيرها. وإتماما للفائدة التي ننشدها نضع بين يدي القارئ صفوة الجهد الشاق المضني الذي قام به المستشرق الروسي الكبير البروفسور (ايفانوف) بمقاله العلمي الفريد الذي بحث فيه عن الوضع الجغرافي والتاريخي والطبوغرافي لبعض القلاع الإسماعيلية في إيران.

لم يتلفت ايفانوف في مقاله لتخرصات المؤلفين الذين سبقوه في الكتابة عن الإسماعيلية وعن تلك القلاع بل رسم بكف الحقيقة المهورة بالأرقام صوراً واقعية لقلاع الفدائية ومعاقلهم الحصينة بعد أن زارها مرتين وتكبد مشاق السفر وتعرض خلال تجواله لقسوة الطقس، كل ذلك في سبيل التحقيق العلمي المجرد البعيد عن العاطفة، ولم يتساهل في نقاش المؤرخ التتري (عطا ملك الجويني) لما أورده في كتابه (جهان كوشاي) نقاشا يستند على فهم عميق للناحية العسكرية والستراتيجية من جهة، ومقارنة الأرقام والارتفاعات ودرجات الحرارة من جهة أخرى.

ولقد تساءل أيضاً ايفانوف عن (جنة الأرض) المزعومة التي أتى على ذكرها أغلب المؤرخين والكتاب من عرب وفرس بقوله إن جنة وارفة الظلال في أرض يجتاحها الشتاء بجليده وزمهريره سبعة أشهر في العام لا يمكن معها معيشة حي غير الإنسان؟ لذا كانوا يبعدون الحيوانات الأهلية إلى القرى المجاورة طوال فصل الشتاء الشديد البرودة.

ونترك المقالة بين يدي القارئ ليحكم فيها بين كاتب يكتب ما تمليه عليه مخيلته العامرة بالدس والحقد والكراهية والبغضاء، وآخر يجوب البلاد ويركب المخاطر ليقدم للعلم والمعرفة والتاريخ ثمرة طيبة تشبع نهم طالبي الحقيقة المجردة من كل شيء.

قال البروفسور ايفانوف:

ما إن عرفت وسائل النقل الحديثة في إيران حتى أصبح وادي (آلموت) الجميل القائم قرب طهران محبباً للسواح، ومكاناً يهيأ للنزهان، وكثيرا ما عمد الزوار إلى نشر انطباعاتهم عن هذا المنظر الفريد وأرفقوها بالصور الحية حتى أصبحت (صخرة آلموت) (التي اعتبرت القلعة الأساسية لشيخ الجبل وفدائيته) أليفة لقلب كل باحث فارسي كمنظر (مسجد القرميد الأزرق) في أصفهان أو كأطلال (بيرسبوليس persepolis)

ومع هذا لم تزل قلاع فدائية (آلموت) غامضة أشد الغموض من الناحية الطبوغرافية، كما كانت في العصور الوسطى، تلك العصور التي لا يمكن التأكد من حالة القلاع فيها.

ولقد نشرت عام ١٩٣١ ميلادية مقالاً في المجلة الجغرافية العدد (ل: ٢٧ صفحة ٣٨ . ٤٥) نبهت فيه الباحثين أن لا يحددوا بالضبط المكان الذي بنيت فيه القلعة الشهيرة للحسن بن الصباح، إذ من المحتمل أن تكون الصخور المجاورة «لجازورخان[١]» هي صخرة آلموت نفسها نظرا لمراتها المطروقة في الوادي، ولوجود المنازل والتحصينات فيها، هذا ما يضطرنا إلى صرف النظر عن الحقيقة التاريخية.

إذ من المعروف إن تواريخ العصور الوسطى ذكرت أن أربعين أو خمسين قلعة إسماعيلية كانت تشرف على حراسة الوادي، وظهرت أسماء عدد منها هنا وهناك، ومما لا شك فيه أن أغلب تلك القلاع كانت صغيرة ومبنية من الطين والحجارة أو الملاط، وبعد أن خربها المغول وتعرضت للتأثير الجوي للإقليم، أصبح أكثرها أكواما من الحجارة، كما تغيرت أسماؤها بعد أن تداولتها أيدي شعوب كثيرة.

وليست القلاع والقرى هي الوحيدة التي طرأ عليها التبديل فاختفت، بل أن حدود المقاطعات لم تكن ثابتة أيضا، ولقد فصل المؤرخون القدماء في كلامهم عن الديلم بين آلموت والطالقان، أما المتأخرون فقد اعتبروا (آلموت) قسما من الطالقان، وأحيانا اعتبروا الطالقان قسما من آلموت، وقبل الحروب عدت (رودبار، وآلموت، والطالقان) ولايات متفرقة، وحديثاً تبدل الأمر فرسم وادي آلموت كقسم من الطالقان، ونجم هذا الخلاف نظرا لبعد القلاع عن الطرق الرئيسية، ولكونها اشتهرت فترة قصيرة تبلغ مئات من السنين (عندما قطنها الإسماعيليون) وغمرها التاريخ ما سبق هذا وما تأخر؛ وكانت زيارتي لتلك المنطقة عام ١٩٢٨ قصيرة لأن الطقس كان غير ملائم على استنباط ما يساعدني لتكوين فكرة واضحة عن المكان، إذ كان من المحتمل أن أحاول دراسة الأماكن الثلاثة: آلموت، وقلعة شيركوه، والاطلال التي فوق جارم رود، نويزار شاه، لأرى أيهما يمكن أن تكون العاصمة للحكومة الإسماعيلية النزارية، وهذا في الحقيقة يجدي إذا كانت العاصمة موجودة في نفس وادي آلموت.

وفي خريف عام ١٩٣٧ أتاحت لي الظروف فقمت بزيارة المكان للمرة الثانية. فبذلت جهدي لمشاهدة كل الوادي بشعابه، فتوجهت من قزوين على طريق (داستجيرد وكالا) الرئيسي وانحدرت إلى مجرى الطالقان، ثم التفت يمينا صاعدا نهر الطالقان لمدة أكثر من ساعتين حتى بلغت خرائب لخمسة بيوت تدعى (أوميشك Amishk) وانحدرت في ممر يعبر سلسلة شيركوه إلى (شهرك(٣)) في وادي آلموت، ثم صعدت مسلكا صعباً يصل للقمة، والتفت إلى اليسار إلى نهاية السلسلة حيث تلتقي آلموت والطالقان بوادي سحيق تربض فوقه قلعة (شيركوه).

---

(١) حور أغلب الكتاب اسم هذا الوادي إلى (Gazar Khan) أو (Gasr Khan) أو (Gasir Khan) وذلك محاولة لإيجاد اشتقاقا للاسم ولكن بدون جدوى. والحقيقة أن الاسم جاء من الجزر (Gazir) أي Gyer صباغ والجزر Khan اي بيت. فيكون الاسم بمعنى (بيت الصباغ).

وبعد أن تفحصت الخرائب عدت إلى المكان الذي تركت فيه (أومشل، ممر شهرك) منحدراً إلى آخر قرية مذكورة، ومن هناك وصلت بالطريق الرئيسي إلى (شوتورخان، جازورخان، الصخرة) وبالمسلك الخلفي وصلت إلى (أوتون) و(إيلون) حيث انحدرت ثانية بوادي آلموت الرئيسي (زاوورك) وانتهيت إلى (جارم رود) و(أوتاك).

وبنفس الطريق عدت إلى أقصى (بوكاش) في مدخل مجرى (شوتورخان) ومن هناك التفت يساراً عابراً المجرى إلى (محمود آباد) ثم صعدت إلى جانب وادي (جاولادك، فيشان، آفتابدار، الخ...) عائداً إلى (شهرك) نفسها ومن هناك اتبعت مجرى صدوين راجعاً من (كوشينان) والتفت يميناً إلى (آسالدار) التي تعتبر اليوم تابعة لولاية رودبار.

لم تكن عودتي إلى قزوين عن طريق (سمبار) عبر مجرى (شاهرود) مقررة من قبل، لذا انحدرت ثانية في وادي آلموت الرئيسي قرب (باداشت) مجتازاً طريقي خلال قرية (آنودا) ومن (باداشت) اتخذت الطريق العادي المعروف إلى (كالا Chala) وداستجيرد وقزوين. وكان مهمتي في زيارتي الثانية اكتشاف مكان قلعة (شيركوه) القائمة فوق مجرى (الموت) قبل أن يلتقي بمجرى (الطالقان)، والجدير بالذكر أن (شيركوه) يطلق أيضاً على دسكرة صغيرة مقامة على أرض مستوية كائنة فوق ملتقى المجريين.

وسلسلة (شيركوه) تقسم لأنهار مشكلة رؤوساً لجبال (ألبورز) وعند الملتقى حيث تنتهي، تظهر بشكل قمة صخرية تتألف من حجارة رمادية تنحدر بشدة إلى الشرق ويبرز رأس القمة الحاد ببروزات صغيرة والمكان لا يُزار إلا نادراً وعندما تأتيه الرعاة في فصل الربيع لوفرة أعشابه. وينتشر عليه هنا وهناك شجيرات شوكية، وعند ملتقى المجريين بالقرب من مدينة شيركوه يوجد نهر الطالقان ومن هناك يتفرع ممران، أحدهما يقود إلى القمة، والآخر يمتد على حافة الصخور ويخرج إلى مدخل المجرى جانب آلموت. وبالاضافة لممر (أومشك. شهرك) يوجد طريق صعب آخر بادئاً من شعب (جاولاديك. باراك) على جانب آلموت وينتهي عند (شهرك الطالقان) ولا يستعمل كثيراً في الوقت الحاضر.

ولقد وجدت أطلال قلعة (شيركوه) عند الرأس الصغير الثاني من سلسلة (شيركوه) ومن الصعوبة أن نقرر فيما إذا كان هو نفس المكان الذي أحبه (علاء الدين) والد آخر إمام في آلموت (ركن الدين خير شاه) وكما هو معروف في ذلك المكان قتل علاء الدين عام ١٢٥٥م. وعند عبوري (بادشت) في كانون ١٩٢٨ سمعت كثيراً عن قلعة شيركوه من سكان المنطقة. وطبقاً لكلامهم كانت (بادشت) أكبر مما هي عليه (الصخرة). ولقد أكدوا لي بأن الطقس إذا لم يكن غائماً أستطيع أن أرى بسهولة من (بادشت) نفسها القلاع والجدران على قمة الهضاب.

وعلى ما يظهر، لقد سمع كثير منهم القصص المشابهة عن لسان الآنسة (ف. ستارك) التي لم

تر بنفسها القلعة، ولا أعلم فيما إذا وصف هذه الأطلال (مونتيث) الذي زار آلموت منذ أكثر من مائة سنة مضت في عام ١٨٣١ الذي نشر بحثاً عن رحلته إلى أذربيجان وشواطئ بحر قزوين في مجلة المجتمع الجغرافي الملكي العدد ٣ صفحة ١٥، سنة ١٨٣٣ ميلادية.

ولقد عرض علي نخبة من سكان كاسبيل المحترمين أن يرافقوني خلال رحلتي الشيقة، والغريب في الأمر أن جميع سكان (مينجيل) لا يعرفون شيئاً عن تاريخ تلك القلاع ويجهلون وجودها جهلاً تاماً.

ولما كنت قد درست دراسة عميقة تاريخ الفدائية الذين شيدوا تلك القلاع وقطنوها حقبة طويلة من الزمن، وعرفت من خلال تعمقي أماكن القلاع التي كانت مقامة على ضفتي (شارود) قررت أن أتبع مجرى النهر حتى منبعه عسى أن أجد موضوع بحثي. فعبرت الميل الحادي عشر إلى (لودشان) وفي الثامن والعشرين وصلت (بيرنزيني) وبعد مسير طويل شاق وعلى بعد ستة وثلاثين ميلاً من (بيرنزيني) وصلنا إلى (جيراندي) وهو المكان الذي يأتي فيه المجرى من جبال آلموت في (جازانديران) التي تغطى دائماً بالثلج، ولقد تثبت من منحدرات الجبل ثم من القمة والسفوح التي تكونها من الأعلى المحاطة بجدار من الحجر. وفي القمة يوجد برج مميز لإحاطته بجدار خارجي، وعلى أحد الجوانب فوق المجرى السحيق يظهر مقام عظيم بممر مدرج وحديقة تحته، وظهر القسم السفلي من الجبل على شكل أرصفة، ولكنه بعيداً كل البعد عن (الجنة الأرضية) التي وصفها كثير من الكتاب، فالإقليم بارد جداً وعلى الأقل يبقى نصف السنة منزلاً لا يطاق. ولم يكن أي نقش على المكان الذي زرته، بل يوجد حوض سباحة، ومكان فسيح فقط هذا كل ما بقي من بناء.

وهكذا يتضح أن كل شيء مبهم حيث لا يشير الوصف بوضوح إلى قلعة (شيركوه) الشهيرة، ومن الجلي أن ليس لدي ما أعمل بـ (الصخرة) أو بـ (ناديزارشاه). وربما كان أقرب مكان للوصف هو قلعة (لامباسار) في وادي (شاهرود) وهناك بعض الشك بالمسألة.

جميع القلاع الإسماعيلية لها صور وفي داخلها أبنية إذا كان قسم منها قد تهدم فيعتبر الباقي معالم برج. ولم أستطع العثور على أي أثر لقرية كانت تدعى (جيراندي) وحتى ولا (كيرزو) وهذا غريب أيضاً.

ومن المحتمل أن تكون الأطلال التي مضى عليها ما يقرب من ستمائة سنة قد تغيرت كثيراً في القرن الأخير. والذي يظهر في الوقت الحاضر من قلعة (شيركوه) قليل مما وصفه (مونتيث).

فقلعة (شيركوه) تقوم على قمة روشن صخري صغير ترتفع ما يقرب من ١٥٠ قدماً على قاعدتها، صخرية من كل جهة، ما عدا الجنوب الغربي حيث تسهل الأرض وتنحدر وتكتسي بالعشب.

وإذا صعد الإنسان هذا المنحدر وجد نفسه على حافة مجرى عميق والمكان على القمة صغير جداً لا يزيد طوله على خمسين يردة. وعلى جانب (الطالقان) على حافة المجرى توجد بقايا

تحصينات قديمة وآثار برج، وعلى جوانب ألموت توجد وجوه صخرية منحدرة عليها آثار نصف دراسة ، وبعض الدرجات المحفورة في الصخر، وعلى مد النظر لم أشاهد آثار تحصينات في هذا الجانب، ومن المحتمل أن تكون هذه القلعة قد بنيت لمراقبة طريق (كالا) أو لتكون بمثابة مستودع تموين لمراقبي مجرى ألموت، ولم تكن هذه ولا مجرى (الطالقان) ظاهرة من القلعة فكلاهما مخبأ بهضاب صخرية منخفضة ترتفع مباشرة من النهر.

وقد عملت هذه كنقطة أجمع حولها المعلومات من سكان المنطقة فيما إذا كان ثمة آثار أخرى عليها أو على الجانب الآخر من الوادي.

ولقد أنكر الجميع ما استفسرت عنه، ومن الصعب أن يشك المرء في عدم معرفتهم بل من المؤكد أنهم يعرفون المنطقة، بل يبغون المكافأة المالية، وبعد أن نفدتهم البخشيش قادوني إلى هناك، وليس من شك في أن القلعة لم تكن مكانا فسيحا، ولم تكن قلعة (ميمون ديز) ولا قلعة (سيدنا حسن) فكل آثار ألموت الطوبوغرافية التي وجدت في مختلف مجالات الحروب ضد الإسماعيلية مبهمة وغامضة. وتوجد التفاصيل القيمة المفيدة فقط في كتاب (تاريخ جهان كوشاي) لمؤلفه (عطا ملك الجويني) لغزو هولاكو لقلعة ألموت، لأن المؤلف قد رافق الجيوش الغازية وشاهد بأم عينه احتلال القلعة، ولم يستطع الدخول للمكتبة الإسماعيلية بعد الاحتلال لتأمين الكتب في (ميمون ديز).

ولقد ظهر التناقض جليا فيما أورده المؤلف، ومن المعروف أن هولاكو خان قد بدأ في حربه ضد الإسماعيلية من (خراسان) في خريف عام ١٢٤٦ ميلادية، وكان الطريق الذي سلكه للقلاع صخري صعب لم يمكن الفرسان والحيوانات المحملة بالأعتدة من الحركة، فاضطر المغول إلى التقرب من الهضاب الجرداء القاحلة، والتفوا حول ألموت في حصار استمر بعض الوقت، وما لبثوا أن ارتدوا عنها للحالة التي وصلت إليها مواشيهم نظرا لندرة الأعشاب وقلتها في تلك المنطقة.

وفي العاشر من شوال الموافق ١٢٥٦.١٠.٣١م. أرسل هولاكو جيشا عن طريق (يارك) واتبعه بجيش آخر قاده بنفسه عبر به سلسلة (شيركوه) التي تربط (شهرك ألموت بشهرك الطالقان) ولقد وصف عطا ملك الجويني هذا الجيش مستعملا المبالغة في الكتابة التي كانت معروفة في ذلك الزمان: فقال: (لو قورن به جيش يأجوج ومأجوج لكان قطرة في بحر) وفي الثامن عشر من نفس الشهر خيم ذلك الجيش اللجب على قاعدة (ميمون ديز) ويظهر من هذا أنهم لم يتخذوا طريقا ملتويا، طريق وادي الطالقان منحدرين إلى مجرى ألموت، صاعدين إلى (الصخرة) أو إلى (ناديزار. شاه) لأن مثل هذه الطرق تتطلب بلا شك وقتا أطول.

ثم ذكر تفاصيل أهم حيث قال: لقد خيم (هولاكو) بالقسم الرئيسي من جيشه على قمة الهضبة الواقعة للشمال مقابل القلعة، وخيم جناح الجيش الأيمن قرب (ايسبيدار) وخيم جناح

الجيش الأيسر في (آلموت) ولم يكن المكان المسمى (اسبيدار) أكثر وجودا، صفحة (٤٣ و٤٦) من (تاريخ جهان كوشاي)، وهنا استعملت (الموت) بمعنى خاص غير واضح، وهذا يعني أن (آلموت) بنيت خارج وادي آلموت.

وطبقا لهذه التفاصيل تكون النتيجة التي يمكن للإنسان أن يركن إليها هي: أن مكان (ميمون ديز) لم يكن (الصخرة) ولا (ناديزار ـ شاه) ومن المعروف أن علامات الشمال والجنوب في الأعمال الإيرانية تكون قريبة جدا. ولكن عندما نفترض أن (ميمون ديز) كانت كنفس (الصخرة) تبرز كثير من الشكوك. وفي مثل هذه الحالة تلائم بدون صعوبة الممر من (جازور خان) إلى (تادان) و(قوشك تشال) التي تمر إلى الشمال والشمال الغربي من (الصخرة). و(اسبيدار) المكان الذي خيم فيه الجناح الأيمن، يمكنها في هذه الحالة أن تتحقق بأطلال منظورة على الحقول الواقعة على طريق (شوتورخان) ولكن خبر تخييم الجناح الأيسر في (آلموت) يخرب كل هذه الحسابات، وأنا شخصياً زرت هذا الجانب الشرقي من (الصخرة) في سنة ١٩٣٧ ميلادية فلم أر أي أثر للسكان أو أي أثر للتخييم. وبعد أن يجتاز المرء (العنق) الواصل بين الصخرة وجسم الجبل، يضطر إلى أن ينحدر لمكان لا يمكن التخييم عليه لشدة انحداره. كما لا يمكن التخييم بقاعدة الجبل حيث يكون المخيم هدفا لما يدحرج من الأعلى وما يحط من القمة. ومن ثم يجد المرء نفسه في ممر ضيق بين رواشن الصخور التي تشكل طبقات الصخرة نفسها، وفي شهر تشرين الثاني من كل عام تسيل مياه مجرى صغير منه على سفوح الجبل، وأقرب مكان ملائم للتخييم تحت مكان الصخور الحادة الذي يبعد قليلاً عن القلعة. ومن الصعب أن نفهم كيف اختير ذلك المكان الموحش ليكون قلعة (آلموت)، ويذكر (الجويني) أن الجناح الأيمن وقلب الجيش المحاصر تمركز خارج (آلموت)، وكذلك من الصعب أن نطبق أقوال (الجويني) على قلعة (ناديزار شاه) لأن المجرى يمر من قاعدتها، وضفتي النهر على ما يظهر هي الأرض الوحيدة الملائمة لتخييم جيش ضخم، وعلى الأرجح أنه تمركزوا جنوب الهضبة، لأن الصخور حادة لا يمكن معها التخييم، وفي الشمال منها ترتفع الجبال العالية فوق قرية (جارم رود) وهو مكان لائق لنزول قائد الجيش، وفي هذه الحالة على الجناح الأيمن أن ينزل بين الصخور، والجناح الأيسر فوق قرية (جارمود)، ولا أدري إذا كانت هذه القرية هي (آلموت) نفسها التي ذكرها الجويني؟

وهكذا ليس من السهل أن أعرف بالضبط أين أقيمت (ميمون ديز).

ولقد حفظ (الجويني) بعض الأخبار مرجعا إياها إلى أصلها، مع أن ما ذكره لا يوضح ما عجم من (طبغرافيا) وطبقاً لكلامه تكون قلعه (ميمون ديز) هي القلعة التي بناها علاء الدين والد آخر حاكم لآلموت (ركن الدين خير شاه) بعد أن بحث مدة اثنتي عشرة سنة عن مكان ملائم للبناء حتى وجد مكان القلعة فشيدها عليه؛ ومن المعروف أن علاء الدين استلم إمامة الإسماعيلية النزارية عام

١٢٢٠ ميلادية وكان عمره تسع سنوات، وفي حالة صحة هذه الرواية تكون قلعة (ميمون ديز) قد بنيت قبل عام ١٢٣٥ ميلادية. ومن إشارات بعض المؤرخين يمكننا أن نرى صحة هذه الرواية، لأن اسم قلعة (ميمون ديز) لم ينشر في كتب المؤلفين إلا في آخر أيام الإسماعيلية في آلموت.

ويتبين من أقوال (الجويني) أن تلك القلعة لم تكن ذات أهمية في بدء حياة الحسن بن الصباح في آلموت إلا أن روايات بعض المؤرخين تشكك بهذا القول.

واعتماداً على ما ذكره (الجويني) في كتابه الصفحة (٥٣) حول نصر المغول الكبير، وحملتهم السريعة على القلعة ، نرى الكثير من المغالاة بوصف هذه الحملة، إذ كيف ثبت ابن الصباح على نفس القلعة إحدى عشرة سنة محاصراً بجيش (محمد بن ملك شاه السلجوقي)!!

ومن هذا يظهر أيضاً أن (ميمون ديز) هي أقدم قلعة للصباح، أسست ثم رممت، ويدعم هذا الاستنتاج ما دعاه جميع المؤرخين بقلعة (آلموت) إشارة إلى (ميمون ديز)، وهناك مقالة في كتاب نزهة القلوب للمستوفي القزويني صفحة (٦١) تؤكد بأن كلا المكانين مكان واحد هو نفس القلعة. ومن الصعب جداً أن نستنتج شيئاً مما كتبه (الجويني) حيث يقول في الصفحة (٤٧) إن القلعة بنيت على مرتفع عال جداً ويوجد برد قارس لا يمكن معه أن يحتفظ هناك بالحيوانات خلال الخريف والشتاء، وربما يشير بقوله هذا إلى (ناديزارشاه) التي ترتفع ١٠,٠٠٠ قدم بينما لا ترتفع (الصخرة) أكثر من ٦٠٠٠ قدم مثل ارتفاع همدان حيث لا يصعب وجود حيوانات أهلية في الشتاء.

ويذكر (الجويني) في الصفحة (٥٠) أن حصن ميمون ديز قد بنى من حجارة وملاط وقرميد مشوي، واستعمل في تثبيت الزوايا مزيج من الملاط والرخام، وكان محيط الصور كما شاهده (المغول) مقدار فرسخ أي أكثر من أربعة أميال؛ وهذا يكفي الصخرة من الجهة الممكن مهاجمتها، ويبعد المواطنين فيها عن حجارة العدو المقذوفة عليهم.

ويقول (الجويني) أيضاً في الصفحة (٥٢) إن أعلى بناء في القلعة يسمى (القبة) وهناك يسكن أتقياء الإسماعيلية الذين يفضلون الموت على العار والأسر. وأطلال الجدران الموجودة على قمة الصخرة يظهر أنها من النوع المعتدل، ومن الصعب أن نحدد مكان البرج.

وكل هذه التفاصيل إن صحت لا تدعم الاعتقاد أن (ميمون ديز) كانت نفس القلعة على الصخرة، وفي عام ١٩٣٧ فتشت المكان فلم أجد إلا أكواماً من الحجارة التي ربما كانت تستعمل لبناء البيوت. فلا يظهر أي أثر يوجد بالقرب منها قرى وكثير من الأراضي الزراعية وحاضرتهم (منصور آباد). وكما يشاهد الآن أقيمت القلعة على هضبة تشبه الكعكة داخلة في سهل مائل يخرج عن خط الهضاب المماثلة مجانبة قاعدة الهضاب. وترتفع ألف قدم أو أكثر عن قاعدتها. وعندما ننظر إليها من السهول مثلاً من الجنوب تظهر مستديرة وهكذا دعيت (جيردكوه) أي الهضبة المستديرة إذ تظهر مثل كعكة عيد عظيمة تقع غرب (دامغان) وتقع في مكان مميز عما يحيط به. ويشاهد ذو

النظر الحاد من قمتها لمسافة خمسين ميلا شرقاً وجنوباً وغرباً، أما من الشمال فيبرز جدار مانع من السلسلة الرئيسية.

ويمكن أن يصل (الخيّال) من دامغان إليها بيوم واحد. وبما أنه لا يوجد سكان هناك فمن الأسهل أن يستقل طريق سيارات (طهران) لدولة آباد، التي تبعد عشرين كيلو متر عن (دامغان). وهناك توجد عدة أماكن مسكونة يمكن أن يستعان بأدلة منها. ومن دولة آباد مسافة عشرة كيلومترات حتى الهضبة. وليس هناك طريق ملائم، ومع هذا توجد سيارات قوية لاجتياز المكان، وعندما كانت القلعة في يد الإسماعيلية كان طريق (خراسان) أعلى منه الآن، وكانت تنتشر الواحات في الجنوب والجنوب الشرقي منها عبر الصحراء.

وكما ذكر (القزويني) يوجد عدد من القرى تقع الآن على أرض أخفض منها بالأمس، وأطلال (منصور آباد) تظهر أنها كانت عالية وذات أبنية أضخم، وحجم أوسع وتحصينات قوية تحتل مكاناً فسيحاً، وتقع الأطلال على مسافة خمسة أو ستة كيلومترات عن (جيردكوه) إلى الجنوب والجنوب الغربي، والمكان الآن قاحل فيه بعض بقاع مزروعة. ويوجد هنا وهناك بعض قرى صغيرة دراسة. ويقال أن سبب خلوها هو جدب البلاد. وتسقى الأراضي الزراعية هنا بواسطة الأقنية التي تجتاز الهضاب وتسقي لمسافات بعيدة.

ومع أنه لم يتح لي أن أرى شخصياً الطرق، فقد وصف لي السكان أن كثيراً من الطرق القديمة كانت تجتاز قاعدات الهضبات وتسيطر عليها قلعة (جيردكوه) وقد تغيرت الآن هي والقرى المارة بها. وكما ذكرنا تحرس القلعة الممر إلى شاطئ قزوين.

ومبدأ هذه الآثار تشكل من وادي نهر (دامغان) التي تميل إلى الشرق نحو المدينة ولا تبعد كثيراً عن مكان (جيردكوه). وعلى الطريق الذي أتبعته إلى بلدة (آيانو) وفي وادي دامغان لم أشاهد أي سكان. وسمعت أن ثمة طريقاً آخر تحف به القرى الأثرية التي يظهر أنها كانت تخص الإسماعيلية سابقاً كما يستدل من تحصيناتها. ويقود هذا الممر من (جيردكوه) إلى (ميرنيجار) التي كانت صورة طبق الأصل عن (جيردكوه) نفسها.

وجوانب الهضبة المقام عليها (جيردكوه) قائمة على قاعدتها، ولذا تركت أكثر الجهات بدون تحصين، أما الحصون والجدران فقد بنيت على ظهر التاج فوق الهضبة وخاصة في الشرق والجنوب الشرقي، وينتشر على الهضبة كثير من الآثار المبعثرة هنا وهناك، ومن الصعب أن نعرف سبب بنائها اليوم. ومن المحتمل أنها كانت مغلقة ومتصلة ببعضها بممرات سرية في أيام الإسماعيلية، واليوم وبعد سبعمائة سنة لازالت الآثار تحت أكوام الحجارة حيث تظهر كميات كبيرة من الملاط.

وعندما تقترب الهضبة من دولة آباد يمر المرء بين حقول فيها عدة قرى صغيرة تقع بقرب تلال طينية واطئة. وعندما تبدأ المنحدرات تظهر الأمكنة المجدبة المغطاة بحجارة جرفتها السيول من

عل. وقبل الكل يشاهد الإنسان عند منحدر الهضاب آثار البناء كبابين مفتوحين، ويسميها أهل تلك البلاد (السجن) ويصعب اكتشاف فيما إذا كان هذا نوعاً من التحصينات أو بوابة لمدخل يقود إلى القمة. ويظهر أن عدداً من الأماكن التي نستطيع منها أن نصعد الهضبة قد اندثرت ولم يبق إلا مصعد وحيد في الجانب الشمالي والهضبة للتحصينات حيث أن المنحدرات لا تحصن. وهكذا لا يظهر إلا أثر قرية تشبه بقية قرى الإسماعيلية الحصينة، مثل (جردكوه) و(مصياف) و(القدموس) الخ... وعلى الغالب أن (الجويني) كان يهدف بتحليلاته أن يبرهن على أن (صخرة آلموت) لا يمكن أن تكون هي نفسها (ميمون ديز).

والأقوال الشفوية المأخوذة من فم المواطنين تضاد ذلك الاحتمال، لأن الفلاحين هناك قد أجمعوا على أن القلعة القديمة بناها الحسن بن الصباح فوق تل قرب (شهرك) وهذا محتمل لأن المكان لم يظهر مرمماً، وعدا عن هذا يظهر انموذجياً، والتل نفسه يبدو طبيعياً، وليس مجموعة أكوام من البناء. وبالحقيقة هناك قلعة من أقوى القلاع الإسماعيلية في سوريا تدعى (مصياف) بنيت على رابية لا تعلو عن تلك المجاورة (لشهرك)، ويظهر أن البناء بالأحجار القطوعة لم يكن لزاماً في إيران كما هو الحال في سوريا، وكل إنسان يشاهد قلعة جزيرة (هرمز) السمراء الداكنة أو قلعة (باهمانيد) في جولبارجا يتحقق أن التحصين بالحجر والملاط هو تحصين ممتاز، وفي شتاء عام ١٩٣٧ ميلادية تعرفت على ضابط متقاعد هو (عين السلطان) كان يملك حصة من وادي (آلموت) فرفض بدون تردد كلا الفرضين القائلين بأن (ميمون ديز) بنيت على الصخرة أو على المكان المحدد لآلموت الآن. وقرر بعزم أنها بنيت في مقاطعة (روبدار) التي شاهد بنفسه خرابتها. وللأسف لم يتذكر اسم القرية التي بنيت قربها.

أما الجبال الممتدة على شاطئ بحر قزوين لم يظهر عليها ثمة أثر للقلاع. ومن المحتمل أن قلعة (ميمون ديز) بعد أن دمرها المغول وعدت عليها عوامل الطبيعة والطقس القاسي، درست وبادت.

ومن المهم أن نعرف من أول من اكتشف المكان الذي شيد عليه الحسن بن الصباح القلعة. وأنا لم أتأكد فيما إذا كان (شييل Shiel) هو أول أوربي زار المكان فضمه لأعمال (الفدائية). وليس من المحتمل أن يسرع الناقد بتصديق كل ما ينم إليه ويعتبر كل ما قيل له أصلاً وجزءاً للإسماعيلية القديمة وهناك تواريخ قديمة معاصرة للأحداث وحيادية ربما نجد فيها الخبر اليقين والبلسم الشافي.

جيردكوه GIRDKOH

كان أكثر انتشار الإسماعيلية الايرانيين في الولايات الشرقية مثل (خراسان) و(كوهستان). وهناك كثير من الجماعات الإسماعيلية الصغيرة قطنت مدناً أخرى ولعبت دوراً ثانوياً في التاريخ. ومن المهم أن نلقي نظرة على تواريخ العرب لتلك الفترة حيث دعت أئمة الإسماعيليين الذين هم

الأسياد الروحيون للإسماعيلية، باسم (صاحب ألموت وجيردكوه) بدون أي إشارة إلى خراسان. ويظهر من هذا أن قلعة (جيردكوه) قرب (دامغان) تعتبر ذات قيمة كبيرة بالنسبة لمعاصري الأئمة الإسماعيليين.

وكانت أهمية القلعة ناشئة عن سيطرتها على طريق (خراسان) كذلك لحماية طريق الهضاب الواصلة بين داخل إيران وبحر قزوين، الذي يوازي طريق (بسطام) بنفس الطريقة التي يوازي فيها طريق ألموت طريق (مينجيل)، ومن الصعوبة أن ندرك مدى اهتمام الإسماعيلية ببحر قزوين.

ولقد زار (جيردكوه) كثير من علماء الآثار وصورت من الجو بطائرات البعثات الأميركية. ولقد اطلعني رئيس مصلحة الآثار الإيرانية على هذه الصور وهي لم تنشر إلى الآن. ولم أعرف حتى الآن أي وصف (لجيردكوه) من باحث كان، وإليك بعض التفاصيل.

على عكس قلعة (ألموت) لم تكن قلعة (جيردكوه) بحاجة للتثبيت وليس في مكانها أدنى شك. ويحدثنا عنها (ياقوت الحموي) الجغرافي الشهير أثناء وصفه لدامغان ذاكرا أن قلعة (جيردكوه) تبعد مسافة يوم عن مدينة (دامغان) ويمكن أن تُرى من هناك. ولقد ذكر (المستوفي القزويني) في كتابه نزهة القلوب صفحة ١٦١ القلعة وسماها (Dizi Gunbadan) أي: القلعة (ذات القبب) وقال بأنها تبعد ثلاثة فراسخ عن (دامغان). وكان لا تزار الآن حتى ولا من الرعاة، وليس هناك أية ممرات عند قاعدتها. والقاعدة مغطاة بأكوام من الحجارة الممزوجة بالملاط قد جرفتها السيول من القلاع المجاورة. ولقد استعملت الحجارة على الأكثر في بناء الجدران والمنازل. وتدل قطع الملاط والقرميد على درجة من الرقي في بناء البيوت. ومن الصعب اليوم الارتقاء إلى قمة المدخل نظرا لما أحدثته الطبيعة من مجار وأخاديد، والمسئول الوحيد إذاً عن اختفاء آثار الممرات أو المصاعد هو اختلاف الطقس وقسوة الطبيعة، ومما لاشك فيه أن الآثار كانت موجودة سابقا إلا أن السيول جرفتها مع الزمن، والدليل على ذلك وجود الآثار القريبة من القمة، وهي في حالة بائسة فلا يشعر الإنسان إلا وهو بين الأنقاض. ومن الصعب أن يتصور المرء حالة هذا المسيل كما كان عند احتلاله.

وتظهر قمة الجبل كحرف ملتو ضيق وصخري، على كلا الجانبين توجد بقايا أخاديد مختلفة. ومن المحتمل تماماً أن القمة كانت مستوية أكثر منذ سبعمائة سنة وأن هذه الأخاديد سببتها الأمطار وعاديات الأيام. والقمة مغطاة بأكوام من الحجارة، وبقايا جدران كانت قد بنيت بالحجارة والملاط. ومن الواضح أن أهم قسم من القلعة بني هنا. ولا تزال كثير من الأواني الفخارية التي ربما صنعت لخزن المياه أو الحبوب. وشاهدت أكثر من حجر مقطوع وبعض الدرجات محفورة في الصخر. ولا توجد آثار للنحت. وقد بنيت الجدران والبروج من القرميد المشوي. وخاصة بعض المنشآت في بعض الأمكنة. ومن الصعب فحص الأماكن بدقة لوجودها فوق هوة سحيقة. ولا يمكن التسلق بدون حبال وخاصة تخلخل الحجارة تحت الأقدام قد يودي بالمرء إلى أسفل.

وبمقدورنا أن نعرف شيئاً عن القلعة وخاصة عن زمن بناء المكان إذا قمنا بالتنقيب والحفر. كذلك من الصعب أن يرى الإنسان التحصينات حيث تغيب الجدران في أكثر الأماكن.

إن جميع المظاهر تدل على أن هذه القلعة هي عبارة عن صورة طبق الأصل عن قلعة (آلموت) وقلعة (شيركوه) وفي بعض القلاع الإسماعيلية، وخاصة في خرائب خراسان قرب (كائن) وفي وادي (بيرجاند). ومن المؤكد أن الجميع شُيدوا بنفس الوقت تقريباً، ولا يمكن بغير التمحيص والتدقيق معرفة فيما إذا كانت هذه القلاع بنيت قبل الإسلام، ومن الواضح أن البناء صمم لحماية السكان، ولا يظهر أن مزيداً من المواطنين سكنوا هناك، وبدون النار لا يمكن احتلال تلك القلاع، مع العلم أن مخازنها كانت كافية للتموين بالماء والطعام لفترة طويلة، ومن هنا تتضح أهمية هذه القلاع الواقعة على نقطة التقاء شرق إيران بغربة واهتمام الإسماعيلية بها.

ولنعد لوصف قلعة (جردكوه) فنقول إن لها من الشمال عنقاً تصل الهضبة بعدة قمم أخرى، وتحت هذه العنق توجد مساحة خالية من الحجارة ترابية معشوشة. ويجد المرء هناك بعض الحجارة الصناعية المنحوتة. ومن الواضح أن سكان القلاع رموها فوق رؤوس المحاصرين أثناء الحصار. وأكثرها يزيد قطرها على المترين وثقيلة للغاية، ومنظرها يوحي بطريقة رميها واجتماعها بهذه البقعة القريبة من القمة.

ونستنتج من هذا أن المدخل كان في عصر المغول بهذا الجانب، وعدد آخر من (القذائف الحجرية) موجودة في جهات أخرى، إلا أنها ضاعت بين غيرها من أكوام الحجارة، ويستدل من أكوام الحجارة وقطع الملاط الموجودة فوق مكان (القذائف) على أن قرية كانت مقامة هناك. ومن المحتمل أن لا يكون أهلها من المدافعين عن القلعة، وإنما من المتصلين بالعالم الخارجي للقلعة بدلالة حوانيتهم ومرافقهم العامة. ويشاهد هذا البناء على قاعدة (آلموت) ومثله على قاعدة قلعة مصياف في سوريا، وهناك من يقول أن أهل القرية كانوا لا يلجأون إلى القلعة إلا في حالة الحصار والقتال. وليس بالإمكان معرفة وجود اتصال تام بين (جيردكوه) وقلعة (كوهي مير نيجار) في وادي دامغان، كما يصعب التأكد فيما إذا كانت من بناء الإسماعيلية، إلا أن شكل التحصينات ومقارنتها بغيرها يجزم بأن أيد إسماعيلية قد بنتها. وبالنسبة (لجيردكوه) فلقد عمرت بالسكان فور خروج المغول منها، وما زالت قصص الماضي عالقة بأذهان السكان. ويمكن للعداء أن يصل القلعة ببضع ساعات إذا خرج من (جيردكوه)، وتبعد مدينة (آسترآباد) ثلاثة مراحل عن هذا المكان. ولا يوجد حركة مرور نشيطة هناك، فعلى جانبي الطريق قليل من السكان وبعض الآثار. وكما هو معروف كانت الأمكنة القريبة من (دامغان) ذات أهمية عظيمة أبان حكم الامبراطورية (البارثيانية) حيث أسست مدن كثيرة هناك.

ولقد خدم موقع تلك القلاع الأغراض العسكرية خدمات جلى كما في (جردكوه) و(كوهي مير نيجار)، ودافعت كثيراً أمام الغزاة الذين اندفعوا من قلب آسيا.